

بسم الله الرحمن الرحيم

مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا
دورة الانترفيث

اللقاء الرابع
ربيع الثاني: 1428هـ - أيار 2007م

عنوان البحث: (منهج القرآن والسنّة في التعامل مع أهل الكتاب)

إعداد الدكتور: محمد موفق الغلاياني

امام المركز الإسلامي في: Grand Blanc, Michigan
أستاذ مساعد بجامعة الإسلامية الأمريكية بولاية Michigan
رئيس مجلس أمناء اتحاد الأئمة في أمريكا الشمالية.
عضو اللجنة الدائمة للافتاء بجمع فقهاء الشريعة بأمريكا.

بسم الله الرحمن الرحيم

منهج القرآن والسنة في التعامل مع أهل الكتاب

مقدمة:

الحمد لله حمداً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، واصلي وأسلم على المعموت رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

وبعد:

تختبط البشرية اليوم في ضلالات عقدية وسلوكيّة متعددة، فالجاهليّات القدیمة عادت جذعة ولكن بظاهر خلابة من هرج المدنية الحديثة. فصورات الناس عن الكون والحياة والانسان أصابتها انتكاسات خطيرة، وسادت الأفكار الداعية الى اعطاء الفرد الحرية المطلقة فيما يمارسه من سلوك وعادات. فغدا الانسان بهذه الحرية المهاربة من ضوابط الدين أحاط من الحيوان في في بعض الجوانب. وبهذا تخلّى الفراغ العقدي والروحي بصورة لم يسبق لها مثيل الا في عصور الجاهليّة الأولى. ورغم هذا فان الاسلام يتقدم اليوم – وبقوته الذاتية – كمنافس قوي لملئ هذا الفراغ بما يملكه من رصيد ربانی فريد رغم عدم قيام المسلمين بما يجب عليهم من تقديم الاسلام للناس كافة كعلاج للأمراض المتنوعة التي يعانون منها.

ان الاسلام يتقدم اليوم متحدياً وكأن مهمة جديدة تنتظر المسلمين ليتولوا النهوض بالانسانية من كبوتها من جديد خاصة وأن الوعي العالمي بأهمية دور الاسلام في علاج المشكلات النفسيّة والأمراض الاجتماعيّة المستعصية قد ازداد. ولكن – وفي الوقت نفسه – بحد أعداء الاسلام قد شمروا عن ساعد الجد محاولين اعادة طرح ما سبق لأسلافهم من متعصبة أهل الكتاب من شبّهات واتهامات ضد الاسلام، مع ابتداع المزيد منها كلما سُنحت لهم الفرصة ليحولوا دون انتشار المد الاسلامي. وقد تأثرت الغالبية من غير المسلمين بهذه السموم المبثوثة ضد الاسلام عبر مختلف وسائل الاعلام فأحجمت عن سماع كلمة الحق، وازداد بعضهم

كرها للاسلام وأهله. من هنا بربرت أهمية تقديم الاسلام اليوم بصورةه النقية بدون افراط أو تفريط، كما بربرت أهمية محاورة أهل الكتاب لما لهم من الكلمة المسماة في معظم الدول المتقدمة صناعيا، بل في كثير من الدول في أرجاء العمورة.

ان أحداث التاسع من ايلول عام 2001م جعلت من هذا الأمر موضوعا هاما وحيويا تحب دراسته ومتابعته بتمعن وعمق، اذ لم يعد بمقدور المسلمين الانكفاء على أنفسهم ظانين بأنهم سيسلمون من كيد أعدائهم من خلال عزلتهم وانطواهم. فالألسنة الحداد ضد الاسلام والمسلمين قد زاد أوارها، والشبهات المثارة تنوعت أشكالها و تعددت مظاهر اخراجها من رسوم وافلام وتلفيق للاحبار بما يناسب الغرض المرسوم . وقد اعتقاد القائمون عليها أن الفرصة قد أصبحت سانحة لهم الآن لينالوا من الاسلام والمسلمين بما لم يكونوا يحلمون به من قبل.

من هنا شعر كثير من المسلمين المقيمين في أمريكا أن عليهم أن يفتحوا قنوات الحوار مع غير المسلمين – وبخاصة اهل الكتاب - بصورة أكبر مما كانت عليه، وهذا نشط فريق من لم يكن يعني بانشطة مايسى : inter faith ⁽¹⁾ بالمشاركة في فعالياها ولكن بدون تحطيط مسيق أو القيام بدراسة موضوعية لمعرفة الجوانب الايجابية والسلبية حول هذه المنظمة. وهذا فان من الصدق القول بان المسلمين القائمين بهذه الاتشطة هم في أمس الحاجة اليوم الى من يضع لهم الصووى ويحدد المعالم لهذا النشاط مع بيان أسسه وضوابطه الشرعية اضافة لبيان المؤهلات المطلوبة لمن يتصدى لهذا العمل الهام والدقيق.

ان كل مسلم ملزم شرعا بأن يصدر في تصوراته وأحكامه وأنشطته المختلفة من خلال المصادرين الأساسيين لهذا الدين ألا وهم القرآن والسنة. قال سبحانه: (انا كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون. ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون). ⁽²⁾

¹- لا توجد ترجمة دقيقة لهذا المصطلح لأنه حديث. ولعل أقرب القول فيه هو أنه تبادل وجهات النظر في المسائل الدينية بين أتباع عدد من الديانات والنحل

²- سورة النور: 51 و 52

لقد تشعبت آراء المسلمين المقيمين في أمريكا حول طريقة التعامل مع أهل الكتاب بين منفتح أو معتدل ومتشدد أو منغلق، وأنا هنا لست معنيا بالحديث عن التعامل مع أهل الكتاب من جميع الوجوه أو على سبيل الاستقصاء، ولكنني سأتحدث عن منهج القرآن والسنة فيما يتعلق بمحاورهم وبخاصة من قبل المسلمين المقيمين كأقلية في ديار الغربة.

ان معرفة منهج القرآن والسنة في التعامل مع أهل الكتاب عموماً ومحاورهم على وجه الخصوص من الواجبات التي لا يمكن لمسلم يرحب القيام بهذا النشاط الا عرض عنده، لأن هذا المنهج جزء من دينه الذي يعتقد اعتقاداً جازماً بأنه وحي متزل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. أما ما عداهما فاجتهادات قد تخطئ وقد تصيب. قال سبحانه: (يا أيها

الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله ان الله سميح عليم). ^(١)

لقد أمرنا سبحانه بتدبر كتابه الكريم ، لذا أنزل له متفرقًا ليسهل عليهم تدبره. قال سبحانه: (وقرأنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه ترتيلًا) وقد وصل إلينا مجموعاً لا مفرقاً، لذا فإن كثيراً من المسلمين لا يعلمون إلا الترتير السهل عن مناسبات الآيات وصلتها بعضها البعض. هذا وإن القرآن منهج كلي متكامل يبين بعضه بعضه ويكمel بعضه بعضه ، فإذا أردنا التعمق في موضوع ما فعلينا استعراض الآيات الواردة حوله كافة، كما علينا معرفة زمن التتريل أو مناسبته لربط الحقائق بعضها فنخلص إلى تكوين صورة شاملة متكاملة. وهذا يبين عظمة وحكمة متزل الكتاب سبحانه كي يتسع للناس تدبر موضوعات القرآن والتعمق فيها كوحدات متجانسة يكمل بعضها بعضها .

ومن الموضوعات الهامة التي تناولها الكتاب الكريم مجادلة أهل الكتاب وكيفية تعامل الداعية معهم رغم اختلاف مواقفهم من دعوة الإسلام ورسالته.

سأحاول في هذه الصفحات المعدودات - بعون الله - القاء الضوء سريعاً على هذا الموضوع بما يناسب هذا اللقاء المبارك علماً بأنه بحاجة لدراسة أوفى وأشمل، فالميدان لا زال فسيحاً لأهل العلم ليدلوا بدلوا بهم فيه والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

خطة البحث:

يشتمل هذا البحث على مطلبين اثنين وفق ما يلي:

1 - مشروعية مجادلة أهل الكتاب من القرآن والسنة .

2 - حكم مجادلة أهل الكتاب.

المطلب الأول:

مشروعية مجادلة أهل الكتاب من القرآن والسنة.

أنزل الله القرآن الكريم هداية للناس جميعا، فخاطب عقول الناس كيلا تستبد بها الأهواء وتحاذها الشبهات، واتجه إلى الأرواح كي لا تسيطر عليها الشهوات، وما ترك حالة من الحالات التي تكتنف النفس البشرية إلا و كان له منها توجيه وارشاد. وهو في كل ذلك يرشدها إلى الهدایة لعبادته وحده لا شريك له والى الاستقامة على أمره. ولأهل الكتاب من هذا الخطاب والجدال حظ كبير في القرآن والسنة ذلك أن المسافة الفاصلة بينهم وبين الهدى: ترك الموى.

أدلة مشروعية مجادلة أهل الكتاب من القرآن الكريم:

1 - قال تعالى: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بما هي أحسن). (¹ فالخطاب في هذه الآية عام يشمل من هو غير مسلم سواء أكان كتابياً أو غير كتابي، وقد بين ابن كثير المراد من الآية بقوله: (قوله وجادلهم بالتي هي أحسن).

¹ - سورة النحل 125

أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب.)¹ وأكَّدَ الشِّيخُ ابْنُ سَعْدِي رَحْمَهُ اللَّهُ مَعْنَى نَفْسِهِ قَالَ: (إِنْ كَانَ الْمَدْعُو يَرَى أَنَّ مَا هُوَ عَلَيْهِ الْحَقُّ أَوْ كَانَ دَاعِيَةً إِلَى الْبَاطِلِ فَيُجَادِلُ بِالِّيَّاهِي أَحْسَنُ وَهِيَ الْطَّرِيقُ الَّتِي تَكُونُ أَدْعَى لِاستِجَابَتِهِ عَقْلًا وَنَقْلًا). وَمِنْ ذَلِكِ الْاحْتِاجَاجِ عَلَيْهِ بِالْأَدْلَةِ الَّتِي كَانَ يَعْتَقِدُهَا إِنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى حَصْولِ الْمَصْوُدِ وَأَنَّ لَا تُؤْدِي الْمُحَادِلَةُ إِلَى خَصَامٍ أَوْ مُشَاتَّمَةٍ تَذَهَّبُ بِمَقْصُودِهَا وَلَا تَحْصُلُ الْفَائِدَةُ مِنْهَا بَلْ يَكُونُ الْقَصْدُ مِنْهَا هَدَايَةُ الْخَلْقِ إِلَى الْحَقِّ لَا الْمُغَالَبَةُ وَنَحْوُهَا.)²

2- قال تعالى: (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَّمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) ³)

قال الإمام الشوكاني رحمه الله مبينا معنى هذه الآية: (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) أي: إلا بالخصلة التي هي أحسن وذلك على سبيل الدعاء لهم إلى الله عز وجل والتبييه لهم على حججه وبراهينه رجاء إجابتهم إلى الإسلام لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة. (إِلَّا الَّذِينَ ظَلَّمُوا مِنْهُمْ) بأن أفرطوا في المحادثة ولم يتأنبو مع المسلمين فلا يأس بالإغلاط عليهم والتخسيس في مجادلتهم.)⁴

¹- تفسير القرآن العظيم لابن كثير: 591/2

²- تفسير ابن سعدي: 93/3

³- سورة العنكبوت: 46

⁴- فتح القدير: 205/4

وبهذا يتضح أن القرآن الكريم لم يكتفى باعطاء المشروعية لجادلة أهل الكتاب بل بين لنا السبل الواجب اتباعها في هذا المجال لتحقيق الغاية المنشودة. ومن هذه السبل:

أ- اتباع الأسلوب الأمثل:

قال سبحانه: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بما هي أحسن) ^١ (والحكمة تكمن في تقديم حجج الإسلام وحقائقه بما يناسب المقام ويؤدي إلى تحريك العقل، أما الموعظة فتقتطلب الأخلاص في مخاطبة روح الإنسان بما يؤدي إلى تحريك ضميره. ومن الأسلوب الحسن الذي اتبّعه القرآن الكريم في مخاطبة أهل الكتاب البدء بالأمور المشتركة كي يتم جلب انتباهم إلى هذه الرسالة الربانية. قال سبحانه: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّ تَوْلُوا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ.) ^٢ وقد اقتفي النبي صلى الله عليه وسلم الأسلوب ذاته في دعوته لأهل الكتاب فضمن رسالته إلى هرقل عظيم الروم هذه الآية الكريمة يدعوه إلى الإسلام ونبذ الشرك. فقد ثبت في الصحيحين ^٣ أن الرسول صلى الله عليه وسلم كتب إلى هرقل مع دحية بن خليفة الكلبي يدعوه إلى الإسلام ونصه: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فاني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم وسلم يؤتك الله أجرك مرتين. فان توليت فعليك أثم الاريسين). (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء..... الآية)

ب- أن تكون المجادلة بالحسنى مع عدم المداهنة:

وذلك باتباع أسلوب مناسب يستطيع الداعية من خلاله استمالة القلوب وجذب الانتباه. ومن ذلك تلين الكلام لهم مع عدم المداهنة. فليس القصد اظهار الغلبة وإنما بيان حقائق

¹- سورة النحل: 125

²- سورة آل عمران 64

³- البخاري: الفتح 18/80، مسلم: 393 وکلاهما من حديث أبي سفيان الطويل في صفة النبي صلى الله عليه وسلم.

الاسلام وعظيم هديه. قال تعالى: (وَكَذَلِكَ تُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ) ^(١)
 أما المداهنة فغير واردة في حس المسلم الصادق لأن فيها تضييع لحقائق الاسلام، والاسلام هو دين الحق قال سبحانه مذرا من المداهنة: (فَلَا تطعُ الْمُكَذِّبِينَ. وَدُوا لَوْ تَدْهَنُ فِيهِنَّوْنَ) ^(٢)
 وقال آمرا بالصدع بالحق: (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلِيؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلِيَكْفُرْ.) ^(٣)

ج – مراعاة فقه الواقع:

وذلك بمخاطبة كل فرد أو جماعة بحسب حالها قرباً أو بعيداً. فأهل الكتاب كما قرر القرآن الكريم: (لَيْسُوا سَوَاءً لَذَا فَلَا يَجُوزُ التَّعَامِلُ مَعَهُمْ بِطَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ بَلْ كُلُّ بِحْسِبِهِ. وَسُوفَ أُلْقَى مُزِيدًا مِنَ الضَّوْءِ عَلَى هَذَا الْمَوْضِعِ عِنْدِ تَفْصِيلِ الْقَوْلِ فِي حُكْمِ مَجَادِلَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ).

أدلة مشروعية مجادلة أهل الكتاب من السنة :

وردت عدة أحاديث تدل على مشروعية جدال أهل الكتاب منها:

1- عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وأسلتكم)). ^(٤) قال ابن حزم: (وهذا حديث غاية في الصحة وفيه الأمر بالمناظرة وإيجابها كإيجاب الجهاد والنفقة في سبيل الله). ^(٥)

والنبي صلى الله عليه وسلم مبين للقرآن فجداله مع أهل الكتاب هو التطبيق العملي للجدال وبيان الحق لهم كما قال تعالى في جدال نوح لقومه: ((قَالُوا يَا نُوحَ قَدْ جَادَلْنَا فَأَكْثَرْتَ جَدَالَنَا..)) وكذا الآيات الكريمة التي فيها جدال إبراهيم لأبيه ولقومه وللملك ومحاجة موسى لفرعون ولقومه ولهذا كان الجدال عن الحق: ((حِرْفُهُ الْأَنْبِيَاءُ)) كما يقول الفخر

¹ سورة الأنعام: 55

² سورة القلم: 9 و 8

³ سورة الكهف: 29

⁴ رواه الترمذى و أبو داود والنسائى وأحمد وصححه ابن حزم. وقال عنه الشيخ الألبانى فى مشكاة المصايب: اسناده صحيح: 2/1124 رقم 3821

⁵ الاحكام فى أصول الاحكام: 1/29

الرازي^¹) وهكذا طبق النبي صلى الله عليه وسلم المنهج القرآني في مجادلته لأهل الكتاب وهو في هذا ماضٍ على سنة الأنبياء من قبله في حدّاهم لأقوامهم يدعو إلى الله على بصيرة.

2- حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي الا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسننته ويقتدون بأمره، ثم انها تختلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل.)^²) وموضع الشاهد هنا أن الجهاد باللسان مبرئ للذمة.

الأساليب التي اتبعها النبي عليه الصلاة والسلام في دعوته لأهل الكتاب :

1- غشياهم في مجالسهم لدعوتهم إلى الإسلام .

ومن الأدلة على هذا حديث أنس رضي الله عنه قال: (كان غلام يهودي يخدم النبي صلى الله عليه وسلم فمرض فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم يعوده فقعد عند رأسه فقال له: أسلم؛ فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له: أطع أبا القاسم صلى الله عليه وسلم فأسلم فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول :الحمد لله الذي أنقذه من النار.)^³)

2- عدم تصديقهم فيما يروونه من كتبهم، وعدم تكذيبهم تكذيباً عاماً.

وهذا ما ورد في الحديث الذي رواه أبو نعمة أنه بينما هو جالس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء رجل من اليهود فقال هل تتكلّم هذه الجنائز؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله أعلم. فقال اليهودي: أنا أشهد أنها تتكلّم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقونهم ولا تكذبواهم. وقالوا آمنا بالله وملائكته

^¹- التفسير الالكبير للفخر الرازي: 29/27

^²- رواه مسلم في صحيحه. كتاب الإيمان: 50

^³- رواه البخاري رقم: 1356

وكتبه ورسله فان كان حقا لم تكذبواهم وان كان باطلا لم تصدقواهم. وقال: قاتل الله اليهود
لقد أوتوا علما.)¹

3- الكتابة إلى ملوكهم ورؤسائهم .

روى ابن عباس - كما في حديث أبي سفيان الطويل مع هرقل - أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى هرقل: ((بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع المهدى). أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم وسلم يؤتِكَ اللهُ أجرَكَ مرتين . فإنْ توليتَ فإنَّ عليكِ إثمَ الأريسيين. و(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابَ تَعَالَوْا إِلَيْكُمْ سَوَاءٌ يَبْيَنَنَا وَبَيْنُكُمْ أَلَا تَعْبُدُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّمَا تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ))²

4- استقبال وفودهم.

من ذلك استقبال وفد نجران النصارى. قال حذيفة رضي الله عنه: جاء العاقد والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ي يريدان أن يلاعناه . قال: فقال أحد هما لصاحبه: لا تفعل فوالله لئن كاننبياً فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقينا من بعدهنا. قالا: إننا نعطيك ما سألكنا وابعث معنا رجلاً أميناً ولا تبعث معنا إلا أميناً. فقال: لأبعنك معكم رجلاً أميناً حقاً أميناً فاستشرف له أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: قم يا أبا عبيدة ابن الجراح فلما قام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا أمين هذه الأمة))³

¹- أخرجه ابن حبان في صحيحه: 4/151 وأبو داود في سننه: 3/318 وأحمد في مسنده: 4/136 والبيهقي في سننه الكبير: 2/10

²- البخاري مع الفتح: 1/33-13 والآية من سورة آل عمران: 64

³- البخاري مع الفتح: 8/93-94

5- النهي عن تفضيل نبينا عليه الصلاة والسلام على أنبيائهم:

وهذا من حكمته في الدعوة كيلا يشكل هذا حاجزاً بيننا وبين الوصول إلى عقولهم وقلوبهم. فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس جاء يهودي فقال: يا أبا القاسم ضرب وجهي رجل من أصحابك. فقال: من؟ قال رجل من الأنصار. قال: ادعوه. فقال: أضربته؟ قال سمعته بالسوق يخلف: والذي اصطفى موسى على البشر! قلت: أي خبيث! على محمد صلى الله عليه وسلم؟ فأخذتنى غضبة ضربت وجهه. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا تخروا بين الأنبياء... الحديث) ⁽¹⁾ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تخربوني على موسى). ⁽²⁾

المطلب الثاني:

حكم محادلة أهل الكتاب.

نستطيع أن نستنتج من تعننا لكتابنا الكريم إلى وجود نوعين من الجدال مع أهل الكتاب هما على وجح الاختصار: ممدوح ومذموم

1- الجدل الممدوح:

وهو الجدال الذي يقصد به تأييد الحق أو إبطال الباطل أو ما يؤدي إلى ذلك بطريق مشروع. ولعل من أقوى ما ذكر في هذا المجال ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية من تقسيمه لهذا الجدل إلى فرض عين وفرض على الكفاية فقال رحمه الله: (... والدعاء إلى سبيل الرب بالحكمة والموعظة الحسنة والمحادلة بالي هي أحسن ونحو ذلك مما أوجبه الله على المؤمنين فهذا واجب على الكفاية منهم. وأما ما وجب على أعيانهم فهذا يتتنوع بتتنوع قدرهم وحاجتهم

¹ - أخرجه البخاري في كتاب الخصومات: 44

² - البخاري مع الفتح: 441/6

ومعرفتهم). ^١) وقال أيضا: (فأما المحادلة الشرعية كالتي ذكرها الله تعالى عن الأنبياء عليهم السلام وأمر بها في مثل قوله تعالى: (قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا) وقوله: (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه) وقوله: (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه) وقوله: (وجادلهم بالتي هي أحسن) وأمثال ذلك فقد يكون واجباً أو مستحبأً وما كان كذلك لم يكن مذموماً في الشرع. ^٢) وهذه نظرة متعمقة لأن تبليغ دعوة الإسلام واجب في عنق المسلمين في الجملة، وهذا هو لفرض الكفائي، ولكن عندما يتبعن أحد المسلمين لذلك لسبب من الأسباب كعدم وجود شخص آخر يتتصف بما يتحقق فيه من مؤهلات علمية أو لغوية ونحوها فإنه يتوجب عليه القيام بذلك وفقا للقاعدة الشرعية المعروفة: (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب). وهذا هو فرض العين.

وقد وصل الإمام ابن القيم رحمه الله إلى النتيجة ذاتها من خلال دراسته لفقه قصة وفد نجران فقال: (ومنها: جواز مجادلة أهل الكتاب ومناظرهم بل استحباب ذلك بل وجوبه إذا ظهرت مصلحته من إسلام من يرجى إسلامه منهم وإقامة الحجة عليهم ولا يهرب من مجادلتهم إلا عاجز عن إقامة الحجة . . .) ^٣) وأكد الحافظ ابن حجر رحمه الله المعنى ذاته خلال ذكره لفوائد قصة وفد نجران أيضا فقال: (وفيها جواز مجادلة أهل الكتاب، وقد تجنب إذا تعينت مصلحته). ^٤)

2- الجدال المذموم :

وهو الجدل الذي يقصد منه مجرد التعالي على الخصم وتحقيق الغلبة عليه، فهذا من نوع شرعاً ويتأكد تحريمه إذا قلب الحق باطلأً أو الباطل حقاً في سبيل التوصل إلى مبتغاهم. قال ابن تيمية رحمه الله: (والمذموم شرعاً ما ذمه الله ورسوله كالجدل بالباطل والجدل بغير علم والجدل في

¹ - درء تعارض النقل والعقل: 51/1 - 52

² - المصدر السابق: 156/7

³ - زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم: 3/639

⁴ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري: 8/95

الحق بعدما تبين) (¹) ويدخل في هذا النوع دعوات التقارب بين الأديان فإنّها – في الغالب- من الحق الذي أريد به الباطل. وما يحسن مراعاته في هذا المقام التفريق بين مقام الدعوة ومقام دفع الصائل وهل هما على حد سواء أم لا؟ فمن استبان عنده الفرق بين المقامين لُمسَ من كلامه نصرة للإسلام وعزته، ولهذا فإنَّ الفرق جليٌّ بين من يرد وينافح على سبيل الدعوة، وبين من يرد على هيئة دفع الصائِئ.

الفارق بين مجادلة الجاحد ودعوة غير المسلم بعامة:

إنَّ مجادلة الجاحد للحق الساعي جهده لاقامة الحجج والشبه المناهضة للإسلام لا ينبغي أن تكون من باب الدعوة بالحكمة أو الموعظة الحسنة، بل يجب أن تكون من باب دفع ضرره عن المسلمين وصياله عليهم، فمن المعلوم في فقهنا أنه اذا صال جيش الكفر على المسلمين وجب عليهم دفعه بالقوة، وكذلك الأمر اذا صال عليهم أرباب العزو الفكري بالحجج والشبه الباطلة كان لزاماً على أولي العلم من المسلمين دفع هذا الصيال بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة. ولا يتطلب في هذا الصيال أن يكون لينا بل بما يناسب المقام في دحض أباطيل الأعداء. فالمسلمون قد يغلبون في ساحر القتال اذا لم تكن عدتهم الإيمانية أو العسكرية كافية. ولكنهم لا يغلبون في ساحر الفكر أبداً لأن حجة لاسلام غالبة دائماً لأنها حق ، وقد تكفل سبحانه أن يهوي هذه الأمة من يكون قائماً لله بالحجحة قال عز من قائل: (بل نفذ بالحق على الباطل فيدمجه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون). (²) أما غير الجاحد المكابر فدعوته تكون بالرفق واللين وفق الم Heidi الرباني المعروف (بالحكمة والموعظة الحسنة) وقد بين ابن حزم ذلك فقال: (وقال تعالى: (ولا يطعون موطنًا يغيط الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح) . ولا غيش أغطي على الكفار والمبطلين من هتك أقوالهم بالحجحة الصادعة وقد تهزم العساكر الكبار، والحجحة الصحيحة لا تغلب أبداً فهي أدعى

¹ - درء تعارض النقل والعقل: 156/7

² - سورة الانبياء: 18

إلى الحق وأنصر للدين من السلاح الشاكى والأعداد الجممة . وأفضل الصحابة الذين لا نظير لهم إنما أسلموا بقيام البراهين على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم عندهم فكانوا أفضل من أسلم بالغبة بلا خلاف من أحد المسلمين . وأول ما أمر الله عز وجل نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يدعوه له الناس بالحجـة البالـغـة بلا قـتـالـ، فـلـمـ قـامـتـ الحـجـةـ وـعـانـدـواـ الـحـقـ أـطـلـقـ الله تعالى عليهم السيف حينئذ؛ وقال تعالى: (قل فللـهـ الحـجـةـ البـالـغـةـ). وقال تعالى: (بل نـقـذـفـ بالـحـقـ عـلـىـ الـبـاطـلـ فـيـدـمـغـهـ إـذـاـ هـوـ زـاهـقـ). ولا شك في أن هذا إنما هو بالحجـةـ لأن السيف مـرـةـ لـنـاـ وـمـرـةـ عـلـيـنـاـ وـلـيـسـ كـذـلـكـ البرـهـانـ، بلـ هوـ لـنـاـ أـبـدـاـ وـدـامـغـ لـقـوـلـ مـخـالـفـيـنـاـ وـمـزـهـقـ لـهـ أـبـدـاـ. وـرـبـ قـوـةـ بـالـيـدـ قـدـ دـمـغـتـ بـالـبـاطـلـ حـقـاـ كـثـيرـاـ فـأـزـهـقـتـهـ. مـنـهـ يـوـمـ الـحـرـةـ وـيـوـمـ قـتـلـ عـثـمـانـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ وـيـوـمـ قـتـلـ الـحـسـيـنـ وـابـنـ الزـبـيرـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـمـ . . . وـقـدـ قـتـلـ أـنـبـيـاءـ كـثـيرـ وـمـاـ غـلـبـتـ حـجـتـهـمـ قـطـ .)¹

وبناء على هذا فلا يصح للداعية أن يعامل من يحاورهم معاملة واحدة ، اذ عليه أن يخاطب كلاب بحسبه كي يتحصل على الشمرة المرحومة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية مبينا أهمية هذا التمييز: (الإنسان له ثلاثة أحوال : إما أن يعرف الحق ويعمل به . وإما أن يعرفه ولا يعمل به . وإما أن يجحده . فأفضلها أن يعرف الحق وي العمل به . والثاني: أن يعرفه لكن نفسه تخالفه فلا توافقه على العمل به . والثالث: من لا يعرفه بل يعارضه .

صاحب الحال الأول: هو الذي يُدعى بالحكمة فإنَّ الحكمة هي العلم بالحق والعمل به، فالنوع الأكمل من الناس من يعرف الحق وي العمل به فيُدعون بالحكمة .

والثاني: من يعرف الحق لكن تخالفه نفسه فهذا يوضع بالموعظة الحسنة. فهاتان هما الطريقان: الحكمة والموعظة. وعامة الناس يحتاجون إلى هذا وهذا فإنَّ النفس لها هوى تدعوها إلى خلاف الحق وإنْ عرفته؛ فالناسُ يحتاجون إلى الموعظة الحسنة والحكمة فلابد من الدعوة بهذا وهذا .

وأما الجدلُ فلا يدعى به بل هو من باب دفع الصائل. فإذا عارض الحق معارض جودل بالتي هي أحسن. ولهذا قال: (وجادلهم) فجعله فعلاً مأموراً به مع قوله (ادعهم)، فأمره بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وأمره أن يجادلهم بالتي هي أحسن. وقال في في الجدال: (باليت هي أحسن) ولم يقل بـ (الحسنة) كما قال في الموعظة؛ لأن الجدال فيه مدافعة ومجاوبة فيحتاج أن يكون بالتي هي أحسن حتى يصلح ما فيه من الممانعة والمدافعة، والموعظة لا تدافع كما يدافع المجادل فيما دام الرجل قابلاً للحكمة أو الموعظة الحسنة أو لهما جميعاً لم يتحج إلى المجادلة فإذا مانع جودل بالتي هي أحسن.)⁽¹⁾

أصناف أهل الكتاب وحكم مجادلة كل منهم:

وبعد أن تكونت لدينا فكرة عامة عن الحكم الشرعي بمحادلة أهل الكتاب نحاول الآن التعمق في هذا من خلال معرفة أصنافهم وحكم الشريعة في مجادلة كل منهم على حدة.

فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يلتقي مع الناس على اختلاف عقائدهم فمنهم المسترشد الذي يطلب الحق ليلتزم به ومنهم الجاهل الذي يبتغي العلم ليستنير به ومنهم الجاحد الذي يسلك سبيل المدافعة والمنازعة بغية تثبيت ما عنده ودحض حجة من عداته، لكنه قد يستسلم لما تنتجه المدافعة والمنازعة وظهور الحجة وبيان المحجّة، ومنهم المعاند المتلدد الذي لا يلوysi على شيء غير الوقوف أمام كل جديد بالصد والإنكار بدعوى التزام ما كان عليه الأولون من الآباء والأجداد ... ومن هؤلاء وهؤلاء من يتسب إلى كتاب متزل أصابه من التحريف والتبدل ما جعله يخلط حقاً بباطل ورشاداً بعى وصدقأً بكذب وهم اليهود والنصارى فواجههم عليه الصلاة والسلام وقد وعى طريقة القرآن الكريم في بيان الحق وتثبيته، ودفع الباطل وتزهيفه، فكانت العلاقة وثيقة بين جدال القرآن مع أهل الكتاب و ما ورد عنه عليه الصلاة والسلام في هذا المجال ولا غرو فالنبي صلى الله عليه وسلم هو المفسر والمبين لوحى القرآن. قال سبحانه: (وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس مانزل إليهم ولعلهم يتفكرون.)⁽²⁾

¹ - الرد على المنطقين لابن تيمية: 467

² - سورة النحل: 44

ولذا فان مواجهة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الكتاب اتخذت صورا عديدة منها: دعوهم للإسلام، ومجادلتهم ومناظرهم، وأخذ المواثيق، ثم جهادهم في حال نقضهم لهذه المواثيق.

اذا تدبرنا كتاب الله سبحانه فيما يتعلق بعوقبه من أهل الكتاب وقت نزوله نجد أن له معهم عدة أحوال وذلك تبعا لموافقهم من الإسلام ونبيه وأهله ، كما كان للرسول عليه صلاة الله وسلامه الأحوال ذاتها معهم. فالقرآن الكريم لم يضعهم في بوتقة واحدة، لذا فانه لم يعاملهم معاملة واحدة بل تعامل مع كل فريق منهم حسب موقفه من الرسالة وصاحبها عليه الصلاة والسلام مسلمة أو بمحافاة أو معاداة وحرب.

تصنيف القرآن الكريم لأحوال أهل الكتاب مع النبي عليه صلاة الله وسلامه ومع المسلمين :

الصنف الأول:

المؤمنون الذين آمنوا برسالة محمد عليه الصلاة والسلام

وهؤلاء هم بعض أهل الكتاب الذين آمنوا بما أنزل إليهم وما أنزل على نبينا عليه الصلاة والسلام واعتنقوا الإسلام وقد أثني عليهم الله سبحانه بقوله: (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاطِئِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرٌ هُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)¹

وقال تعالى مادحا الذين تأثروا بتلاوهم للقرآن الكريم فأسلموا: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقًّا تَلَوْتُهُ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكُفُرُ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)²

وقال تعالى: (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنَكِّرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَأْبِ)³

وقال تعالى: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرْتَبَتِينَ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُوْنَ

¹- سورة آل عمران: 199

²- سورة البقرة: 121

³- سورة الرعد: 36

بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) ^١) وَقَالَ تَعَالَى : (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ) ^٢) وَقَالَ تَعَالَى : (وَلَتَجْدَنَ أَقْرَبَهُمْ مُوْدَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيسِينَ وَرَهَبَانَ وَأَهْمَمُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْ الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مَا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبُّنَا آمَنَا فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ .) ^٣)

الصنف الثاني:

أهل الكتاب الذين بقوا على دياناتهم لكنهم منصفون.

وَهُمْ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَمْنَاءٌ يَوْفُونَ بِالْعَهْدِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ أَقْرَبُ مُوْدَةً لِلْمُسْلِمِينَ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَمِنْ يَسَارِعُ فِي الْخَيْرَاتِ وَهَذَا مَا جَاءَ فِي وَصْفِهِمْ فِي آيَاتٍ كَرِيمَاتٍ مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمِنَهُ بِقُنْطَارٍ يَؤْدِهِ إِلَيْكَ) وَقَوْلُهُ سَبْحَانَهُ : (لَيْسُوا سَوَاءُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَمْ مِنْ قَوْمٍ يَتَلَوَّنُ آيَاتُ اللهِ آنَاءَ اللَّيلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَسَارُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأَوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُونَ مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يَكُفُرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَقْيِنِ .) ^٤) وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (مَنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ) ^٥) وَمَعْنَى مُقْتَصِدَةٌ أَيْ غَيْرُ حَائِدَةٍ عَنِ الصَّوَابِ . يَقَالُ فِي الْلُّسَانِ الْعَرَبِيِّ : أَقْصَدُهُ السَّهْمُ أَصَابَهُ دُونَ أَنْ يَحِيدَ عَنْهُ . فَهُؤُلَاءِ يَجْدِرُ بِهِمْ إِذَا عَرَفُوا الْحَقَّ أَنْ يَتَّبِعُوهُ فَلَا يَحِيدُونَ عَنْهُ لَأَنَّهُمْ مُقْتَصِدُونَ ، وَهَذَا مَدْخَلٌ نُفْسِيٌّ عَظِيمٌ يَلْجُعُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ مِنْ خَلَالِهِ فِي أَغْوَارِ النُّفُوسِ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي تَهْفُو بِطَبَيْعَتِهَا إِلَى الْإِنْصَافِ وَالْعَدْلِ .

^١ - سورة القصص: 54-52

² - سورة العنكبوت: 47

³ - سورة المائدة: 83

⁴ - سورة آل عمران: 113-115

⁵ - سورة المائدة: 66

لقد علمنا القرآن الكريم كيف يخاطب هذه الفئة من أهل الكتاب فقال تعالى: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلْمَةٍ سَوَاءَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَا تَعْبُدُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلُّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) ^(١)

وقال أيضاً: (وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمَّيْمِينَ أَلَّا سَلَّمُوكُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوكُمْ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلُّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) ^(٢) وقال تعالى: (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تَقْرُبُوا إِلَيْهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا) ^(٣)

لقد شرع الله سبحانه بعض الأحكام الخاصة المتعلقة بأهل الكتاب مانحا ايهم بعض الميزات التي لم يعطها لغيرهم مثل اباحة ذبائحهم، والزواج من الحصنات من نسائهم. وهذا أيضاً يعتبر مدخلاً نفسياً طيباً يجعل العقلاء منهم يصيخون السمع لهذا الم Heidi الرباني.

قال تعالى: (الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيَّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْسَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْسَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكُفُرُ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) ^(٤)

الصنف الثالث:

الناهضون بدون اعتداء أو قتال من بعض أهل الكتاب للإسلام والمسلمين.
 هذا الصنف كان يحمل العداوة للإسلام وللمسلمين، لكنهم لم يتجاوزوا بعد انتهاء حدود الكلام والنقد والاستهزاء والسخرية والنقاوة والحقن على المسلمين وكراه الخير لهم وتنبيه الضلال لهم والتشكيك في دينهم، وقد أمرنا الله سبحانه بالغفور والصفح عنهم والصبر على

¹ - سورة آل عمران: 64

² - سورة آل عمران: 20

³ - سورة النساء: 131

⁴ - سورة المائدة: 5

أذاهم . قال تعالى: (لَتُبْلِوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) ^١
 وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَحْذِلُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوا وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارُ أُولَئِيَّاءِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوا وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقُلُونَ) ^٢
 وقال تعالى: (مَا يُودُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكُونَ أَنْ يَتَرَلَّ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُ بِرَحْمَتِهِ مِنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) ^٣
 وقال تعالى: (وَدَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرْدُونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارٌ حَسِداً مِنْ عَنْدِ أَنفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفِحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ^٤
 وقال تعالى: (وَدَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَضْلُّونَكُمْ وَمَا يَضْلُّونَ إِلَّا أَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) ^٥
 وقال تعالى: (وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارَ وَأَكْفَرُوا أَخْرَهُ لِعْلَهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلَا تَؤْمِنُوا إِلَّا مَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهَدِيَ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يَؤْتِيهِ مِنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِ) ^٦
 وقال تعالى: (قُلْ يَا أَهْلِ الْكِتَابِ لَمْ تَصْدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ آمِنْ تَبْغُونَهَا عَوْجًا وَأَنْتُمْ شَهِداءٌ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) ^٧
 وقال تعالى: (وَلَنْ تَرْضَىَ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىَ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) ^٨
 وقال تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنْ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَبِرِيدُونَ أَنْ تَضْلِلُواْ

^١ - سورة آل عمران: 186

² - سورة المائدah: 58-57

³ - سورة البقرة: 105

⁴ - سورة البقرة: 109

⁵ - سورة آل عمران: 69

⁶ - سورة آل عمران: 72-73

⁷ - سورة آل عمران: 99

⁸ - سورة البقرة: 120

السَّبِيلَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا)¹
 يبدو واضحا من هذه النصوص الكريمة عدم التعميم فألفاظها كالتالي: "من أهل الكتاب -
 كثير من أهل الكتاب - طائفة من أهل الكتاب - ومنهم" فأمثال هذه الآيات تشير إلى
 طائفة من أهل الكتاب وليس إلى جميعهم، وهذا من الانصاف القرآني الذي يبدو جلياً لكل
 من يتأمل في هذا الكتاب الرباني الكريم.

الصنف الرابع: الأعداء المحاربون.

وهو لاء هم الأعداء المغاربون للمسلمين من أهل الكتاب والذين كانوا يوالون أعداء المسلمين
 من أهل مكة ويناصرونهم ضد المسلمين ، بل إنهم كانوا يقولون للوثنيين من أهل مكة:
 (هؤلاء أهداي من الذين آمنوا سبيلا) و هو لاء هم من أمر الله بقتالهم حتى يعطوا الجزية عن يد
 وهم صاغرون ، ولم يكن للمسلمين أن يقاتلوهم إلا لما بدؤوا هم بالعدوان ونقض العهود
 ومناصرة وتحريض أعداء المسلمين من أهل مكة وتقديم العون والقوة لهم ومظاهرتهم ضد
 المسلمين فحينها شرع الله قتالهم وهذا ما ورد في شأن أهل الكتاب المغاربين للمسلمين .

قال تعالى: (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا
 يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهو صاغرون).²)

وفي هذا النص القرآني عدة نقاط تقيم الحجة على كل من يقول بأن الإسلام أمر بقتل جميع
 أهل الكتاب بهدف إجبارهم على اعتناق الإسلام، وهذا باطل من وجوه عدة منها:

1- أن قوله تعالى: (ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله) اشارة الى عدم التزامهم بأحكام
 دينهم. فيأخذون بما شرعي لهم الاخبار والرهبان. فمعظم المحرمات التي حرمتها الله ورسوله في
 الإسلام هي نفسها التي حرمتها الله في التوراة والإنجيل كالشرك والكفر والكذب والرياء

¹- سورة النساء: 44-45

²- سورة التوبه: 29

والنفاق والربا والزنا والسرقة والقتل والظلم ونقض العهود والمواثيق وعدم الوفاء بالوعود.
فهذه جميعاً حرمها الله في الديانات الثلاث.

2- أكد القرآن الكريم قيام هذه الفئة بالتحريض ضد المسلمين في مواطن أخرى منها قوله تعالى: (أَلَمْ تَرِ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْرِ وَالظَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هُؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا) ^(١) قوله عز من قائل: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ تَصْدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْعُونَهَا عَوْجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِعَافٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) ^(٢)
والى جانب ما سبق نجد أن سجل هذه الفئة من أهل الكتاب كان في غاية السوء في تعاملها مع المسلمين، فلم يكن لها من عمل سوى الصد عن سبيل الله، ومظاهره الوثنين ومساندتهم ضد المسلمين بالوعود الكاذبة والتحريض المستمر. فهـاهم بنو النضير يستحثون المشركين على القدوم للمدينة للقضاء على المسلمين بعيد غزوـة بدر الكبرى، ويحاولون في الوقت نفسه قتل نبي الإسلام عليه أفضل الصلاة والسلام. ولذا تم احـلاؤـهم عن المدينة.

قال تعالى: (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَّتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنَّوا أَنَّهُمْ مَانَعُتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَأَنَّهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَّ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبُ يُخْرِبُونَ بِيُوْتِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولَى الْأَبْصَارِ * وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُوهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ أَنَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) ^(٣)

أما بنـو قـريـظـة فـغـدـرـوـا بـالـمـسـلـمـيـن فـي أـحـرـاجـ الأـوقـات خـالـلـ مـحاـصـرـةـ الـأـحزـابـ لـلـمـسـلـمـيـن خـارـجـ الـخـنـدقـ. قالـ تعالىـ مـبـيـنـ فـضـلـهـ عـلـىـ الـمـسـلـمـيـنـ بـعـدـ أـحـبـطـ كـيـدـهـمـ: (وَرَدَ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعِيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا * وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوْهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَّاصِهِمْ وَقَدَّ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبُ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثُكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطُوْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

¹- سورة النساء: 51

²- سورة آل عمران: 99

³- سورة الحشر: 2-4

قدِيرًا^١). () المراد بالذين ظاهروهم في هذه الآية يهود بنى قرظة، والمظاهرَة معناها: العون بالقوة والشدة، وهذا يؤكّد المدى الذي وصل اليه عونهم للمشركيين.

فهؤلاء هم الذين وقف منهم الاسلام هذا الموقف الشديد حماية لهذ الدين وأهله من كيدهم ومظاهرتهم للمشركيين، وهذا شأن الدول القوية الحية التي لا تقبل التلاعُب بعصرها من قبل الأعداء المоторيين، فأمثال هؤلاء لا تنفع معهم الحكمة والوعظة الحسنة اذ لا بد من ايقافهم عند حدّهم، واذا ارادوا البقاء في مجتمع المسلمين فعليهم الخضوع لنظامه، وآية ذلك ان يقوموا بدفع الجزية للحاكم المسلم مقابل حماية المسلمين لهم، وقيامهم بأداء الزكاة والانحراف في الجيش المسلم بوصفها فرائض اسلامية لا يطالب بها غير المسلمين.

ونخلص مما تقدم أن القرآن الكريم أنصف أهل الكتاب فلم يحكم عليهم بحكم واحد شامل، كما أنه لم يضعهم جميعاً في بوتقة واحدة، بل نظر إلى كل طائفة على حده. فأثنى على من آمن ودخل في الإسلام ، وذكر أن منهم المقتصد غير الحائد عن الصواب وغير الجائز ، ومنهم الذي هو أقرب مودة للMuslimين ، ومنهم من يبغض المسلمين ويحقد عليهم ولا يرضي عنهم ، ومنهم المستهزئ بدين الإسلام الساخر منه، ومنهم المحارب للMuslimين المعين لأعدائهم. وبناء على هذا حدد الموقف الذي يجب على المسلمين اتخاذه تجاه كل من هذه الفئات وفقاً لمسالتها للMuslimين أو عدواً لها لهم كما رأينا. وهذا هو العدل المطلق الذي امتاز به هذا الدين وله الحمد والمنة .